فلاسفة الواقعية — وعلى رأسهم المعلم الأول « أرسطو » — كانوا يرون أن الطبيعة فيما ترمى إليه من البقاء هى التى خلقت بعض الكائنات للإمرة وبعضها للطاعة ، فمن الناس عبيد بحكم الطبع ، والرق فى حقهم نافع بقدر ما هو عادل . فأين تقع من نفوسنا اليوم فكرة الاسترقاق ؟ ... وأين تنزل من عقولنا اليوم فلسفة الرق ؟ ...

الضرورة الاجتماعية ، والمناسبة الحاضرة ، هما اللتان تفسحان للفكرة الجديدة فى الصدور ، والإنسان يتأثر بها فى حياته ، ويتطور معها فيما يلابس من عيشه . ولكنه مع ذلك يؤثر فيها ، فما يزال بها حتى تكون من غرائزه وأهواء نفسه على وفاق .

على موقد الزمن — فى سيره الحثيث ، وضرامه المحتدم — قِدْر كبيرة للطهو والإنضاج ، فيها تنصهر كل فكرة جديدة ، حتى تكون مستساغة صالحة تؤكل وتهضم ... إنها قِدْر الحياة ، والطاهى الأكبر هو الإنسان ، هو ذلك الفرد الذى يتألف من أمثاله مجموع الأمة ، تقهره طبيعته البشرية التى هى مزاج من سمو وتهافت ، ومن قوة وضعف ، ومن مثالية وواقعية ، فيعمل ماوسعه أن يعمل على أن يكون طعامه طبيعياً يستطيع أن يزدرده ، وأن يحيله مادة تغذوه وتنميه ! ...